بقلم

عبد المنعم شلبى

استيقظ السيد منصور السمان من نومه صباح يوم الجمعة ، فسأل زوجته دون أن ينظر اليها :

ـ كيف حال الولد اليوم ؟

اجابت وهى تسوى الفراش

ـ هو أحسن حالا منه فى الايام السابقة ، قبل أن ينام سقيته كوبا من عصير الليمون المركز ، والحمد لله هبطت حرارته الى المستوى العادى .

فاتجه من فوره الى غرفة ولده المريض ، اتكأ على حافة الفراش ومسح برفق على خد الطفل ، فتح عينيه المنهوكتين وحملق فى وجه أبيه فحمله الى صدره وراح يهدهده .. سوف تشفى يابنى ، وسوف تعيش لابيك مدى الحياة ، سآتيك بثياب جديدة ، وحذاء جديد ، وعند ما تكبر ستذهب الى المدرسة ، وحينئذ اشترى لك حقيبة من الجلد الملون ، تضع فيها الكتب ، وتحملها فى يدك ثم تسير بين التلاميذ مرفوع الرأس،كما كان يفعل ابوك وهو صغير ، لكنى لا أريدك ان تعمل صرافا فى بنك مثل ابيك ؟ لانك فى هذه الحال تملأ جيوب الناس بالجنيهات ثم تخرج صفر اليدين ! وحينئذ تصير عصبيا ودائما تخاف من وقوع الخطأ ! يالها من مهنة لعينة ! ، عندما يخطىء صراف البنك فى رقم حسابى تصبح حياته تعسة للغاية ! تصور يابنى ، النقطة الصغير التى يسمونها صفرا تهدد الانسان بالسجن ! افهم هذا جيدا ! هيه ! ولكنك بالطبع لن تشتغل هذه المهنة ! أريد أن أراك طبيبا او مهندسا هيه .. هذا ما أريده لك يابنى ! .

تمايل الطفل على صدر ابيه متضايقا ، فأرقده فى الفراش ثم خرج الى الصالة ، سأل زوجته :

ـ هل اعددت الافطار ؟

أجابت من المطبخ

ـ الشاى على النار ، وفى انتظار اللبن ..

فذهب الى الشرفة آملا فى استنشاق هواء الصباح المنعش، ريثما يأتى اللبن، القى نظرة على الشارع . فوجد الحياة كما هى فى كل يوم ، الناس والعربات والخيول ، وحتى الكلاب الضالة . كلها تسعى فى اتجاهات مختلفة والى غايات متباينة لايدركها الا اصحابها . والشمس بدورها كانت قد ارتفعت فوق البيوت ودخلت من النوافذ والشرفات

ملقية بدفئها فى سخاء الى الاحياء والجمادات على السواء . بالقرب من رصيف الشارع لمح خبازا يركب عجلة ، على راسه طولتان مايئتان بالخبز ، وفوق يده اليسرى طولة ثالثة بينما امسك مقود العجلة بيده اليمنى ، وقدماه لاتكفان عن الحركة . فكر السيد منصور فى ان هذا الخباز سوف يقع لا محالة ، وسوف يتبعثر الخبز فى الشارع ! فمد عنقه الى امام وفى نيته ان يصيح بأعلى صوته : حاذر ايها الخباز ، ولكنه ادرك ان صوته لن يصل ، لأن الخباز كان قد فر بعيدا ، فتمتم لنفسه : هذا الشيطان الا يخاف ! ثم فرك يديه واجاب نفسه : فليتصرف كما يحلو له.. هذه مهنته وهو حر فيها ، هى على اية حال خير من مهنة الصراف .. فيها حرية وانطلاق ونشاط رائع . لكن مدير البنك لا يتركنى أتصرف كما يحلو لى ! ترى ما الذى يحلو لى ؟ ماذا اريد بالضبط ؟ لو كان الامر بيدى لأعدت صنع حياتى من جديد . بودى لو أصبح شابا فى العشرين ؟ حينئذ كنت اشغل وظيفة اخرى ، واتزوج فتاة متواضعة تقدر قيمة الرجل وتقدس الحياة الزوجية . زوجتى لا تفهمنى ! ما اشبهها بمدير البنك ! تخنقنى بتصرفاتها الحمقاء ولا تسمع لى شكوى . بجانب ذلك تعتقد انها بليت بى ! كأنى لم اكن فتى احلامها ! اين ذهبت وداعتها والبراءة التى كانت تشع من عينيها ؟ بأية عين كنت اراها ؟ يالها من خدعة كبرى ! من الأوفق الا يرتبط الانسان بأية امراة ، فالخداع كامن وراء نظراتهن البريئة ، لكنا لا نراه الا بعد فوات الاوان ! كالغلطة الحسابية لا يدركها الصراف الا حين يشيرون اليه باصبع الاتهام !. فى الشرفة المقابلة على مسافة لا تتجاوز عرض الشارع . لمح طفلا يلعب فابتسم منفاعلا وتابعه بأمل عريض . هذه هى البراءة الحقيقية . ما أجمل الحياة عندما يكون الانسان طفلا ! الاشياء البسيطة التى لا تثير انتباهنا تعتبر فى نظرهم ذات قيمة كبرى ، وتملأ قلوبهم بالسعادة ها هو يقفز على قدم واحدة ، يالله من رقص جميل ! اجمل من هز البطون الفاجرة . توقف عن القفز ليخط بشيء فى يده على البلاط ، ماذا ترسم يا ولد ؟ يبدو انك فنان ، تأملاتك تثير الدهشة . لماذا تمحو رسمك بعد هذا المجهود ؟ لعل المنظر لم يعجبك ؟ حاول مرة اخرى ، لا تيأس . انا اجرى عملية الحساب خمس مرات ! وفى كل مرة اكتشف خطأ جديدا ، حتى اصبحت اومن بأن كل ما اراه يحمل فى طياته نوعا من الخطأ ! حتى وجودى نفسه يبدو فى نظرى خطأ من اساسه !.

عاد الطفل الى لعبة القفز من جديد ، فقال السيد منصور فى نفسه : متى تشفى يابنى ومتى اراك تلعب هكذا ؟ . وخيل اليه انه يسمع انفاس ولده تتردد فى صراعها مع الحمى ، فاتجه من فوره الى غرفة المريض . كان سابحا فى نوم هادىء بأنفاس منتظمة . وقف يتطلع اليه بعينين تومضان بالأمل والرجاء . فنادت زوجته من المطبخ .

ـ الافطار جاهز .. ان كنت على موعد ! .

توجه الى المائدة وهو يسائل نفسه : ماذا تقصد بقولها «ان كنت على موعد» هل تريدين اثارتى ؟ ياحصرم النساء ؟ نظر اليها وهى مقبلة . كانت تحمل صينية الشاى بما عليها من اكواب اللبن المغلى وشرائح الخبز . فلما اقتربت من المائدة امسكت بالصينية من حافتها بيد واحدة ،

ثم راحت تجذب الكرسي بيدها الأخرى معتدة بقوة اعصابهـــا ، فخشي السيد منصور ان تخونها اصابعهـــا النحيلة ، فصرخ فيها :

ـــ حاسبى !

اهتزت يدها بالفعـــل فاندلق اللبن على شرائح الخبز ، وســـال من حافة الصينية مشـــكلا خيوطا بيضاء كرذاذ المطر . القت بها على المائدة صارخة .

ـــ ياغلبى !

ثم راحت تجفف اللبن المتساقط بطرف المريلة ..

ارايت ؟ .. هذه نتيجة استهتارك ايتها الخرقاء !

رفعت اليه عينين مغيظتين توبخه ..

ـــ استهتارى انا ؟ يازينة الرجال!.. لماذا تتدخل فى شئونى بصراخك المزعج!؟

ـــ تحملينني ـــ اذن مســـئولية اخطائك ؟ هيـــه .. عودى الى المطبخ يا ناصحة !

ثم غادرها الى الشرفة مرة اخرى وفى صدره مرارة لا تطاق ! . انعشه الهواء الرطب فاستكان الى الهـــدوء قال فى نفسه .. ولكن ربما كانت زوجتى على حق ! لماذا اتدخل فى شئونها بصراخى المزعج ؟ ماذا يحدث لو تركتها تتصرف كما تشاء ؟ ها انا ذا افسدت الافطار ! والخسارة على وحدى ! . استدار الى نافذة الشرفة ثم نظـــر الى الداخـــل هاتفا :

ـــ انا آسف ! .. لن اتدخـــل فى شئونك مرة اخرى .

وعاد ثانية الى الهواء المنعش قبل ان يسمع تعليقها.كان طفل الشرفة المقابلة ما يزال يلعب لكن بشيء جديد . امسك دمية بلاستيكية من قدميها ، رفعها عالية فظهرت هيئتها كاملة .. بنت صـــغيرة بيضاء كالحبن ، عارية كما خلقها المثال : انت تحب البنات ايها الشـــقى ؟ لكنك لا تدرى بعد ما الجنس وما المـــراة ؟ . انزلها ثانية الى مســـتوى نظره ثم خلع راسها عن كتفيها ! قتلتها ؟ .. يبدو انك فهمت ما فى عينيهـــا من مكر ! انت اذا ذكى من صغرك ! . وضـــع الراس بين الكتفين ثانية وقلبهـــا بين يديه ، عادت الحياة تشع من عينيها مرة اخرى . هل تجرب عمليات السحر ؟ تذفها الى الارض سلمت يداك يا شـــهم . ليتنى املك شجاعتك ! اذن لقتلت المدير وتخلصت من زوجتى ! لكن ولدى يريدها . وهذا سر المأساة ! ماذا تفعل ايها الشقى ؟ لعبتك الأخرى مسلية للغاية ، لماذا تركتها ؟ . هذه لعبة خطرة ياولد ! . ركب الطفل حافة الشرفة واخذ يهز رجليه منتشيا ، كما لو كان فارسا يركب حصانا .. لم يتمالك السيد منصور نفســـه فصرخ محذرا :

فالتفت الولد مذعـــورا .. وحينئذ شاهد السيد منصور السمان جســـدا صغيرا يرفرف بيديه ورجليه فى الهواء هابطا الى الارض كمـــا لو كان حمامة اصيبت برصاص صياد !. اصطدم الجسد بحافة احـــدى النوافذ المفتوحة ، كأنه كان يريد ان يدخلها ليحتمى بها من ضربات الموت المتلاحقة ، ولكن الحافة الصـــلبة قذفته بعيدا كبصقة فى وجه الحيـــاة ، فظل يهوى حتى ارتطـــم بالارض ، واسترخى فى رقدته دون ان يحتج باية صرخة !. لعله لم يرد ان يعكر الصفاء المفتعل الذى يسود حياة الشـــارع . ولكن الأمور لم تجر على حسب ارادته! تعكر الصفو تماما ، دوى صراخ حاد من النوافذ والابواب ، وتجمع الناس حول الجسد الساكن ، وراحوا يلغطون بكلام كثير لاطائل من ورائه . بعضـــهم انحى

باللائمة على القدر الذى سلب الطفل حياته بلا مبرر ظاهر ، وبعض آخر صب اللعنات على الأم التى تركت صغيرها يلعب فى الشرفة .

وهز المستسلمون رؤوسهم قائلين : كل شيء بقضاء وقدر . وشق السيد منصور طريقه الى حيث يرقد الطفل ثم اخذ يلوح بيديه فى وجهه ويخاطبه : معاتبا : لماذا تلعب بهذه الطريقة ؟ اما كان الافضل لك أن تمارس لعبك المعتادة ؟ . كنت تقفز على قدم واحدة ! وكنت ترسم لوحاتك الفنية على البلاط ! وجئت بالدمية فأجريت عليها تجاربك ! هذه كلها العاب مسلية ! لماذا لم تكتفيها ؟ الم اصرخ فيك بأعلى صوتى : انزل يا ولد ؟ . لقد سمعتنى من غير شك ! ولكنك لم تفهم قصدى ! كنت اريد ان تنزل الى الشرفة لا الى الشارع ! » .

كان يتكلم بطريقة توحى بأنه قريب من الجنون مما جعل اهل الحى يجذبونه بعيدا حتى لا يجن بالفعل . اما والدة الطفل فقد جعلت تضرب نفسها بلا رحمة وتعوى بصوت مخنوق . ثم ارتمت على ولدها وراحت تضمه الى صدرها وتضغط عليه بحنان خشن كما لو كانت تعيده الى بطنها مرة اخرى ! او لعل حرارة قلبها المكلوم تعيد اليه الحياة . فحملها الناس بطفلها الى البيت مع مزيد من اللعنات على اهمالها . حدث كل هذا فى وقت قصير جدا بحيث لا يحسب فى عمر الزمن ، ولهذا لم يؤثر فى مجرى الحياة ادنى تأثير ، مما جعل الشمس فى برجها تنظر الى الارض بسخرية مرة . فبدا الناس يتفرقون الى شئونهم المعتادة منغمسين فى رتابة الحياة ، كما راح اهل الميت يعدون لدفنه بنفس الطريقة العادية التى يدفن بها الاموات كل يوم . غير ان السيد منصور السمان كان ما يزال منفعلا بشكل ملحوظ ، وكان انفعاله مزيجا من الخوف والالم والاحساس بالجريمة . فظل يردد لنفسه : لقد صرخت بأعلى صوتى : انزل يا ولد ! وكنت اريده ان ينزل الى الشرفة ! لكنه نزل الى الشارع . لماذا ؟ لماذا كف عن لعبة القفز ؟ والتخطيط على البلاط ؟ واللهو بحياة الدمية الصغيرة ؟ ما الذى دفعه الى ركوب هذا الحصان الحجرى المشاكس ؟ .. ومع ذلك فقد كان يهز رجليه منتشيا ، ويضرب ظهر الحصان بيديه كى يسرع فى الجرى ! وكان مطمئنا وسعيدا لكننى صرخت فيه بأعلى صوتى : انزل يا ولد ! وهكذا اطلقت عليه الرصاصة القاتلة دون ان ادرى ! .

احيانا كان صوته يرتفع حتى يسمع نفسه فيصمت مفكرا : هل أريد أن افضح نفسي ؟ .. هل اعلن عن جريمتى امام الملا ؟ لماذا ارفع صوتى هكذا كالمجانين ولكنى لست مجرما ولا مجنونا ، كل ما فى الأمر اننى خفت على الولد من السقوط فحاولت انقاذه . وان جاءت النتيجة عكسية !. تماما كما حدث مع زوجتى ، حذرتها من اندلاق اللبن فاندلق بالفعل ! لماذا ؟.. تتحقق مخاوفى ؟ مع اننى متنبه لها تماما ؟ ولكن لماذا ادافع بهذه الحرارة امام اى قاض اترافع ؟ .. اليس من الأوفق ان الزم الصمت ؟ .. الا اتدخل فى اى شيء ؟ ان اترك الناس ينصرفون على هواهم ! دون اى تعكير ! .. ولكنهم مع ذلك يتهموننى بما لم افعل!.. المدير يتهمنى بالاختلاس لانه وجد « صفرا » ناقصا ، عبثا حاولت افهامه اننى لم ار الصفر اطلاقا ! فهو يرى ان المال يغرى كل الناس حتى الطبيين منهم .. ! هكذا ينبغى ان اصمت الى

النهاية ، لن ادافع عن نفسي امام المدير سوف اتركه يتم عمليات الجـــرد ليتاكد بنفسه ان اموال البنـــك لم تنقص مليما واحدا ! لكن ما يستحق الاهتمام هو هذا الخطأ الجديد ! لم انس صغرا هذه المرة ولم اتهم باختلاس مال ، ولـــكنى قتلت طفلا بريئا بصرخة طائشة . كيف ادفع هذه التهمة ؟ زوجتى نفسها تستطيع ان تشهد ضدى ! تستطيع ان تقول : ان صرخته كالرصـــاص المنطلق من فوهة مسدس . صرخة رهيبة ، تخيف وتسقط اكواب اللبن من فوق الصينية ! فما بالك بطفل حى برىء سريع التأثر !. هذا ما تستطيع ان تقول ، وهى على حق فى هذا . لن تفيدنى نواياى الطيبة اذا ما ادعيتها !. مرة اخرى ارتفع صوته دون ان يدرى حتى سمع نفســـه بوضوح ، فضرب جبهته مؤنبا كمـــا لو كانت هى التى تتكلم ! . وفكر فى صمت : ولكن احدا لم يتهمنى بقتل الطفل ! لماذا اعذب نفسي بغير طائل!.ثم رفع راسه وتنفس بعمق فبدا الشارع هادئا رتيبا كأن لم يحدث فيه شيء على الاطلاق . والمكان الذى سقط فيه الطفل كان خاليا من كل اثر ، سوى ان الشقة المقابلة التىكانت شرفتها مسرحا للهو والمرح اصـــبحت مغلفة بثوب حزين لا تراه العين واكنه لا يخفى على القلب . وفجـــاة دوى صراخ حاد من هناك اعقبه خروج نعش صغير مزين بالورود . لقد انتهى اهل الميت من اعداده ، وحان وقت الدفن . جرى السيد منصور السمان واندس بين المشيعين مرهفا اذنيه لكل حركة . قال فى نفسه : لقد صرحت بكل شيء امامهم حين سقط الولد ، لوحت فى وجهه بيدى وقلت : اننى صرخت فيه بأعلى صوتى انزل يا ولد ! فنزل الى الشارع ! . ربما كان هـــذا الاعتراف وحده دليلا كافيـــا لادانتى ! .. واكننى غير مدين بالمرة .. اقسم على هـــذا .. اننى احب الطفل الذى مات كمـــا احب ولدى الذى اتمنى له الشـــفاء .. ولكنه كان يلعب لعبة خطرة ولم يفهم نصيحتى .

لاحظ ان صوته بدأ يرتفع . فأطبق فمه ضاغطا اسنانه فى بعضها . وراح يقلب عينيه فى المشيعين محاولا قراءة وجوههم . فلم ير غير الوجوم والصمت الحزين ! ثم دارت همسات خافتة كانت كلها خارجة عن الموضوع ! لم يتحدث اى واحد عن الموت او عن اسبابه ، بل ان بعضهم كانيتكلم عن الزواج والاعداد للعرس ! حتى حان موعد افتراقهـــم . فرجع السيد منصور السمان الى بيته وعلى شفتيه ابتسامة غريبة ، لا يدرى هو نفسه كيف يفسرها لكنه اعتزم ان يلزم الهدوء ، والا يصرخ ابدا . فلما دخل بيته رفع ابنه الى صدره وجعل يقبله وعندما راى زوجته ابتسم لها .